الفصل الأول

مصر قبل حرب فلسطين

obeikan.com

obeikan.com

الإشارة إلى كراهية اليهود للبريطانيين

يحاول الكاتب رسم صورة ضعيفة لليهود قبل بدء الحرب من أجل رسم صورة بطولية لهم، حيث يزعم أنهم انتصروا على الجيوش العربية المسلحة بالمعدات الثقيلة على الرغم من قلة معدات اليهود وتسليحهم.

جلس« أفراهام شفرتسشتين » فى مقهى « بلزم » وأكل آيس كريم من داخل كأس معدنى بارد ، كان يبلغ من العمر ثمانية وعشرين عاما ، جميل القامة ووسيم ، مقاتل من الهاجاناه ، الذين أخذوا أجازة ذات مساء من قادة الفصائل فى نتانيا ، حملقت عيناه فى المحتفلين، وكان قلبه ثقيلاً ، تحرك فكره نحو صديقته « روحاما أرديتى » من طبريا ، التى اجتازت فى هذا الوقت تدريبات سلاح فى البالماح ، شوقه إليها زاد من شعوره بالوحدة .

بجواره فى المقهى، جلست فى نفس الليلة مجموعة من الجنود البريطانيين من الفرقة السادسة المحمولة جوا، كانوا يرتدون على رؤوسهم قبعات حمراء ، شربوا بيرة ونظروا للجماهير التى مرت عليهم بالغناء والرقص ، بعض الشباب الذين حملوا علماً أزرقاً- أبيضاً ، صرخوا تجاههم : « جيد أننا تخلصنا منكم ، اذهبوا إلى بلدكم .

جندى بريطانى سكران رد بصيحة : « لماذا أنتم فرحين لهذه الدرجة ؟ أليس فى اليوم الذى سنخرج فيه من هنا ، ستدخل كل الجيوش العربية ويقومون بإغراقكم فى البحر ، أنتم ستشتاقون إلينا» .

أصوات غاضبة ارتفعت من الجماهير .

صرخ شخص تجاه البريطانى «نحن سنحارب »، وهو أجاب بسخرية : بماذا ستحاربون ؟ بعدد من البنادق الحقيرة ؟ ماذا ستستطيعون أن تفعلوا أمام الدبابات، الطائرات والمدافع التى يمتلكها العرب ؟ أنتم لاتفهمون أنهم

سينتصرون عليكم بسهولة .

صورة الملك فاروق فى الأدب العبرى

أظهرت الرواية صورة سيئة للملك « فاروق » حيث أشار أن كل اهتمامه كان منصباً على الشهوات والنساء، وأنه يقضى الليالى فى الأندية الليلية يسمع الأغانى ويعجب بالمطربات ، وأنه كان يعشق امرأة يهودية تدعى« ليلى كوهين ».

بصوت منغم عذب غنت المطربة ليلى كوهين « سأراك فى أحلامى » الأغنية المشهورة للموسيقار « بينج كروسفى »، وجنت كعادتها تصفيق حاد وهتافات تشجيعية !!

من على يمين المسرح ، فى غرفة خاصة ، جلس الملك « فاروق » الذى يبلغ من العمر سبعة وعشرين عاما ، وداعبت عينيه المطربة ، بجواره جلس ثلاثة حراس مسلحين بوجوه صامتة ، الملك نفسه كان لديه مسدسين مشحونين – أحدهما فى جيبه ، والآخر فى متناول اليد على المائدة ، لقد كان خائفاً أن يقوموا باغتياله .

كانت له زوجة شرعية وثلاث بنات وعشيقات كثيرات فى جميع أنحاء المدينة، لكن ليليان كوهين كان لها النصيب الأكبر من محبته ، الحقيقة أنها كانت يهودية وهو مسلم، لم تزعجه ، عدة مرات فى الأسبوع كان يهرب إلى غرفته الخاصة فى فندق الأهرامات، كى يشاهدها ، بعد ذلك اعتاد على اصطحابها فى سيارته وأن يقضى معها الليل فى الشقة الفاخرة التى اشتراها لها فى حى الزمالك، قدم لها هدايا غالية الثمن، وأرسل إليها باستمرار صناديق الويسكى والشمبانيا ،وقامت ببيعهم فى السوق السوداء .

ولد « فاروق » فى قصر عابدين بالقاهرة لأبيه الملك « فؤاد » ولأمه الملكة «نازلى» ، ابن وحيد بعد أربع بنات ، فى عمر الرابعة عشر أرسل إلى مدرسة داخلية فى انجلترا ولكن دراسته كانت الشيء الأخير الذى أثار اهتمامه .

أنفق أموالاً كثيرة فى المحلات الفاخرة فى لندن حيث تردد بشغف وراء الفتيات فى المدينة ،و فى عام ١٩٣٦ عندما بلغ من العمر ستة عشر عاما ، توفى والده واستدعى للعودة إلى القاهرة من أجل أن يرث عرش المملكة .

استقبلت مصر ولى العهد بحماس وبحب لا نهاية له ، ملايين الفلاحين امتلأت بهم القطارات والطرق المؤدية إلى العاصمة من أجلْ مشاهدة مراسم التتويج .

وعلى أضواء الشوارع وزع رجال البلاط الملكى اللحوم مجاناً للجماهير ، وترددت أصداء أصوات المدافع فى الجو الحماسى الذى جاء من الصحراء . فاروق سافر إلى بيت النواب بالمقطورة الذهبية ، مرتدياً ملابس بألوان حمراء – بيضاء – خضراء ، وحزام لسيف مرصع بالماس، على جانبى المقطورة ركض جنود الحرس الملكى بملابس ذهبية .

زواج الملك فاروق من الملكة فريدة

بعد مرور عدة أشهر بادرت أم فاروق (الملكة نازلى) بخطبة مناسبة لابنها، العروس الموعودة كانت « فريدة » البالغة من العمر سبعة عشر عاماً، فى مراسم الزفاف الفاخرة قدم فاروق إلى زوجته عقد من الماس غالى الثمن ، ممثلو الطائفة اليهودية قدموا هدية – صندوق ذهبى به فصول المزامير منحوتة على أوراق من الذهب ، أرسل«هتلر » سيارة « مرسيدس » فاخرة، وموسولينى – تمثال قديم للقيصر الرومانى ديقلديانوس .

البريطانيون كانوا هم المسيطرين الحقيقيين على مصر منذ ١٩٣٦، حولّوا فاروق إلى لعبة بلا إرادة، لكن يبدو أن هذا الأمر لم يقلقه ، أمور الدولة لم تأخذ حيزاً مهما فى جدوله اليومى، العالم كان مليئاً ومكدساً بالمتع، وهو أدمنها بفرحه، شهوة الأكل التى ازدادت فى أعقاب حادثة طريق التى أخلت بمهام دور الغدد فى جسده، لم تعرف الشبع، فى وجبات الإفطار كان يأكل بنهم الأسماك واللحوم، البيض

والفاكهة ويشرب أكواب من القهوة لاعدد لها .الخبز كان ممنوعا من أكله ، حتى لايسمن أكثر من ذلك .

ليس أكولاً فقط، أيضا النساء كانت على أفضلية أولوياته، لقد تردد بلهفة وراء كل امرأة أعجبته، بما فى ذلك نساء السفارات الأجنبية ، كانت له مجموعة مفاتيح بألوان مختلفة ، ناسبت أقفال شقق النساء التى اعتاد التردد عليها بصفة دائمة، ذات مرة تنكر فى شكل فلاح ، وخرج إلى المدينة واشترى بنقود قليلة عطف عاهرات الشارع .

فى غرفه الخاصة جمع مجموعة كبيرة من كتب أدب الجنس ولوازم ممارسة الجنس، وفى درج مائدته مجموعة من المخدرات لزيادة قوته الجنسية.

يشير المؤلف إلى صدور قرار التقسيم من جانب الأمم المتحدة ، ويكثر الكاتب من استخدام كلمة (أرض إسرائيل)، مما يدل على توجهاته المتطرفة ، ومحاولته إنكار الحق العربى فى أرض فسطين .

فى نفس الليلة الباردة فى أواخر نوفمبر ١٩٤٧، عندما جلس فى فندق الأهرامات ونظر بإعجاب إلى المطربة اليهودية ، سارع إلى النادى سكرتيره الشخصى وأعلن بصوت مزعج أن جمعية الأمم المتحدة قررت إقامة دولة يهودية ودولة عربية فى (أرض إسرائيل) .

نظر فاروق بتأمل إلى سكرتيره، هو لم يندهش من قرار الأمم المتحدة ، لقد قالت أغلب التقارير أنه لامفر منه ، وفى أعقابها سترسل الدول العربية جيوشها إلى (أرض إسرائيل)، من أجل منع إقامة الدولة اليهودية، فكرة الغزو لم تكن جديدة ، لقد تم طرحها فى مناقشات الجامعة العربية قبل ذلك بعامين، عندما ثارت مخاوف بأن عرب (أرض إسرائيل) لن يستطيعوا النجاح فى النضال أمام تزايد الاستيطان اليهودى .

فى بداية ١٩٤٢، عندما هاجمت جيوش هتلر مقدمة الأراضى الروسية ، وكانت الولايات المتحدة لاتزال تلعق جراح الهجوم اليابانى على أسطولها الحربى فى «برل هاربر »، علم البريطانيون أن الملك فاروق على وشك أن يعين « على ماهر » فى منصب رئيس الحكومة ، وهو أحد المعجبين الشديدين بـ« هتلر » .

فى ساعة الأصيل من يوم ٤ فبراير قبل أن تغرب الشمس، هاجمت سرية دبابات بريطانية قصر عابدين ، ثلاث دبابات اقتحمت الباب الحديدى ، حطمت أوانى الزهور ، وتوقفت بجوار مدخل القصر .

السفير البريطانى « سر ميلس لمفسون » دخل إلى الداخل وهو محاط بضباط بريطانيين ، وكانت مسدساتهم مشهرة ومستعدة للإطلاق ، اقتحم مكتب فاروق وهدده بوضوح : « يوجد أمامك اختيار : تعيين « نحاس » باشا رئيس حزب الوفد فى منصب رئيس الحكومة فى غضون أربعة وعشرين ساعة ، أو أن تترك هذه البلد. « فاروق » بلع هذه الإهانة ونفذ مطلب السفير .

للأسف الشديد من قبل مندوبى الدول العربية،أعرب المصريون فى ذلك الوقت عن معارضة تامة لدخول الجيوش العربية أرض فلسطين،عندما قررت الجامعة العربية أن تكلف كل عضو من أعضائها أن يرسل مليون جنيه استرلينى لعرب فلسطين .

اكتفت مصر الكبرى بين الدول العربية ، بمبلغ كان يعد بمثابة إهانة شديدة : ٢٠ ألف جنيه فقط ، عندما طلب منها إرسال متطوعين إلى معسكر التدريب فى قطانا بجوار دمشق ، من أجل أن ينضموا بعد ذلك إلى نضال عرب فلسطين، أرسلت مصر ٥٠ رجلاً ، فى الوقت الذى أرسلت فيه الدول العربية الأخرى بمفردها خمسة الآف .

وافقت القاهرة أيضا على المساهمة أيضا ببنادق ، لكن عندما وصل السلاح إلى

فلسطين ، اتضح أن كثيراً منها قديمة وغير صالحة للعمل ، وفى ٢٩ نوفمبر ١٩٤٧، فى فندق الأهرامات بالقاهرة ، تقريبا نصف عام قبل غزو الجيوش العربية لـ(أرض إسرائيل) ، كان واضحاً أمام « فاروق » بدون أدنى شك أنه على الرغم من التعاطف الذى تكنه مصر لعرب فلسطين ، فإنها لم تخاطر حتى بجندى واحد فى الحرب من أجلهم .

الطائفة اليهودية فى مصر

علاقة اليهود بمصر، هى علاقة قديمة ، تعود إلى زمن نزول أولاد يعقوب فيها، ثم إلى بقاء البعض منهم فى منطقة الفيوم ، عقب خروج موسى من مصر، فى حدث تاريخى مهم ، يحيطه الكثير من الغموض .وقد أثبت المؤرخون وجود طائفة يهودية فى مصر، فى القرن السادس قبل الميلاد حيث استقر بعضهم فى مدن الدلتا، والبعض الآخر فى جزيرة اليفانتين بمصر العليا ، ثم جاءت جماعة أخرى .

بعد فتح الإسكندر الأكبر لفلسطين عام ٣٢٢ ق .م وقد شجع بطلميوس الأول اليهود على الاستقرار بالإسكندرية ، وبعد سقوط القدس فى يد تيتوس عام ٦٦ م ، أرسل الآلاف من الأسرى اليهود إلى مصر،وتعرضوا لتقلبات عديدة ، حتى كان الفتح العربى لمصر، فتحسنت أوضاعهم ، وشهدت الطائفة نوعاً من الازدهار، وانتقل الكثير منهم إلى الفسطاط ، التى أصبحت عاصمة لمصر، ولتصبح أيضاً مركزاً روحياً كبيراً لليهود، وتشير المصادر التاريخية إلى أن يهود مصر لم يعيشوا فى معزل أو داخل جيتو ، ولم يعتبرهم المجتمع – جالية أجنبية –بل مصريون اعتنقوا الدين اليهودى،والسلوك الاجتماعى لم يميزهم عن بقية أبناء المجتمع المصرى [1].

يرجع أقدم تاريخ لوجود يهودى منظم إلى ما قبل الغزو الفارسى لمصر « ٥٢٥

(١) عرفة عبده على ، يهود مصر منذ عصر الفراعنة حتى عام ٢٠٠٠ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب عام ٢٠٠٠ ص ١٢.

ق .م لكن الحقبة البطلمية ٣٢٣ ق.م شهدت انتعاشاً ملحوظاً فى أوضاع اليهود وحدثت طفرة فى أعدادهم ، وتحسنت أوضاعهم وتعد تلك الحقبة بمثابة عصر ذهبى لهم، لم يقدر للجماعة أن تحظى بمثيل له إلا فى ظل الخلافة الفاطمية التى كان سقوطها إيذاناً بحدوث تدهور كبير للجماعة اليهودية الذى تمثل فى إقصائهم عن كل مركز للتأثير لدى دوائر النفوذ والحكم [١] .

وقد ظل اليهود المصريون يشكلون لبنة مهمة فى البنية الاجتماعية المصرية منذ زمن قديم وعلى امتداد فترة طويلة من تاريخ مصر العربية .

وعلى الرغم من هذه الحقيقة التاريخية،فإن عدد اليهود كان ضئيلاً على الدوام بالمقارنة إلى مجموع المصريين، وفى الفترة التى تمتد فى رحاب الزمن بين الفتح الإسلامى لمصر والغزو العثمانى لها ، تضاءلت نسبة اليهود إلى المسلمين والمسيحيين، وإذا كان عدد اليهود قد تذبذب صعوداً وهبوطاً نتيجة للتطورات التاريخية التى أحاطت بالمجتمع المصرى كله من ناحية ، ونتيجة الظروف الخاصة بالأقلية اليهودية من ناحية أخرى، فإن التطور التاريخى العام يكشف عن أن نسبة اليهود إلى سائر المصريين ظلت فى تناقص مستمر، وإذا كان اليهود فى مصر قد شكلوا أقلية ضئيلة العدد ، فإن ذلك أمر يمكن تفسيره، بشكل عام، فى ضوء الطبيعة غير التبشيرية للدين اليهودى من ناحية، والظروف الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التى حكمت التطور التاريخى لأعداد يهود مصر من ناحية أخرى [٢] .

أثر الفتح الاسلامى على الطائفة اليهودية :

هناك أسباب كثيرة تدعونا للظن بأن أعداد اليهود قد زادت فى مصر بعد الفتح

(١) د.محسن على شومان ، اليهود فى مصر العثمانية حتى القرن التاسع عشر ، الجزء الثانى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٠ ص ٣٤٥.

(٢) د.قاسم عبده قاسم ، اليهود فى مصر منذ الفتح العربى حتى الغزو العثمانى ، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع « القاهرة » ، الطبعة الأولى ١٩٨٧ ص ١١.

الإسلامى نتيجة لتحسن أوضاعهم القانونية والاجتماعية ، فقد صار اليهود « أهل الذمة » بعد أن كانوا أقلية منبوذة تحت الحكم البيزنطى . وخلال القرون الثلاثة التى تلت الفتح الاسلامى جاءت هجرات يهودية كثيرة من شرق العالم الإسلامى لتسكن عالم البحر المتوسط ، واستقر منهم عدد كبير فى مصر، كما أن عددا كبيراً من يهود فلسطين استقر فى مصر خلال تلك الفترة نفسها، ذلك أن التسهيلات التى أتاحتها « دار الإسلام » الشاسعة أتاحت لليهود فرصاً لم يسبق لها مثيل للمشاركة فى النشاط التجارى المزدهر فى العالم الإسلامى، وفى التنقل فى أرجاء دار الإسلام بحرية كبيرة جعلتهم يهاجرون إلى مصر من شتى أنحاء العالم الإسلامى[1].

كانت تطورات القرن الحادى عشر اميلادى من أهم أسباب التطور السكانى لليهود المصريين . فقد كانت الحروب المستمرة ضد قبائل البدو فى فلسطين ، ثم الغزو السلجوقى لفلسطين سنة ١٠٧١ م، فالحملة الصليبية الأولى سنة ١٠٩٩ م، كان هذا كله وراء تدفق أعداد كبيرة من اليهود صوب مصر التى كانت آمنة نسبياً فى تلك الفترة التاريخية، وتكشف أوراق الجنيزا عن أن شطراً كبيراً من يهود مصر آنذاك كانوا من المهاجرين أو من سلالتهم . وعلى الرغم من أن هذه الهجرات اليهودية إلى مصر قد رفعت النسبة العددية ليهود مصر ، فإن أعدادهم ظلت ضئيلة بشكل عام بالنسبة إلى أعداد كل من المسلمين والمسيحيين[2].

وفى عصر الدولة الفاطمية، والدولة الأيوبية، وعصر سلاطين المماليك عاش يهود مصر ازدهاراً اجتماعياً واقتصادياً وثقافياً مماثلاً لما شهدته الطوائف اليهودية فى الأندلس والمغرب العربى تحت ظلال الحكم الإسلامى .

ثم كان الفتح العثمانى لمصر عام ١٥١٧، وقد حافظ « النظام الملى فى ذلك

(١) د.قاسم عبده قاسم ، المرجع السابق ص ١٢

(٢) نفس المرجع السابق ص ١٥.

العهد ، على حقوق والتزامات الطوائف الدينية، وتمتع كثير من اليهود بنظام الامتيازات ، وتحقق للطائفة نوع من الاستقلال الذاتى من الناحية الدينية والإدارية .. وكان الحاخام باشى فى استانبول ، يمثل كل يهود الإمبراطورية أمام الباب العالى [١] .

تمثل التغير فى الجغرافيا السكانية ليهود مصر العثمانية ، فى ميلهم إلى الاستقرار بالمدينة دون القرية، وبتركزهم الشديد بمدن الوجه البحرى دون الصعيد، وبخاصة القاهرة ذات الأغلبية اليهودية ، والكثافة السكانية العالية نسبياً ، ودارت حركتهم فى فلك القاهرة والثغور « الإسكندرية – رشيد – دمياط » التى استأثرت بالقسط الأكبر من نشاط الجماعة ، ولعبت الهجرة الداخلية بين المدن والقرى دوراً مهماً فى صياغة وتشكيل التوزيع الجغرافى بحيث يميل إلى تأكيد الطابع الحضرى للجماعة بالأساس [٢] .

وقد بدت الهجرة اليهودية إلى مصر كعامل وحيد فى تطور البناء السكانى للجماعة ، الذى كان آخذاً فى النمو والازدهار،ثم مال إلى التراجع والانحسار خلال النصف الثانى من القرن الحادى عشر ، وفى كل الأحوال فإن أعدادهم كانت ضئيلة لم تزد على اثنى عشر ألف نفس فى الشطر الأول من الحكم العثمانى، ثم أصيب بالتدهور السريع بحيث لم يتجاوز الخمسة آلاف عند أوائل القرن التاسع عشر [٣] .

وبدأت موجات من الهجرة اليهودية ، من مختلف أرجاء الإمبراطورية العثمانية تنضم إلى العنصر اليهودى الوطنى ... تزامنت مع بداية هجرات مماثلة من بعض الدول ... وتبلغ هذه الهجرات ذروتها، بحلول عام ١٨٤٠ بفضل

(١) عرفه عبده على ، مرجع سابق ص ١٣.

(٢) د.محسن على شومان ، مرجع سابق ص ٣٤٥.

(٣) د.محسن على شومان ، مرجع سابق ص ٣٤٦.

تشجيع « محمد على » باشا وأسرته والجاليات الأجنبية فى مصر، فتزايد توافد يهود أوروبا الذين وجدوا مع سائر الأقليات والجاليات الأجنبية «مناخاً ملائماً» لاغتنام الفرص فى عالم المال والتجارة والسمسرة، وبسقوط البلاد «فريسة للديون الأجنبية » وسيطرة الأوروبيين على مالية مصر، فتمتع اليهود بالامتيازات وحماية القناصل الأجانب ، وكان افتتاح قناة السويس عام ١٨٦٩، إيذاناً بتوالى المزيد من المهاجرين اليهود ، وشهد عهد الخديو إسماعيل توسعاً فى استخدام اليهود فى وظائف الدولة، وتوجهت الطائفة إلى تشييد المدارس والمعابد والمستشفيات والمراكز الاجتماعية وإصدار الصحف والمجلات، ولم يكن فى القوانين القائمة ما يعوق حريتهم ونشاطهم فى التجارة وأعمال الصرافة والبورصة والوظائف الحكومية [١] .

وقد تبين أن حارة اليهود بالقاهرة جاءت وليدة ظروف خاصة نشأت عن أفراد الحاكم بأمر الله الخليفة الفاطمى لحارة زويلة لسكناهم، بحيث غلب اسمهم على اسم الحارة الأصلى ، وأصبح كل منهما يدل على الآخر ويشير إليه ، وأنها لم تكن تختلف عن غيرها من حارات القاهرة، فتطابقت ملامحها الذاتية مع القسمات العامة للحارة فى مصر العثمانية ، وكان أبرز ما يميز حارة اليهود جمعها بين وظائف الحى السكنى وساحة العمل الحرفى والصناعى ، والسوق التجارى، ومن ثم ظهر بها عدد من الحرفيين والصناع، والباعة، معظمهم من المسلمين، وبقيتهم يهود،وخضعت الحارة لرقابة المحتسب المشرف العام على الأسواق [٢].

وقد تشكل يهود مصر العثمانية من أغلبية ساحقة من الربانيين،وأقلية من القرائين ، وأعداد تكاد لاتذكر من السامرة والفلاشة الأحباش ،وضم الربانيون أربع مجموعات رئيسية : مصريون – مغاربة – أروام – فرنج،واتسمت الجماعة

(١) عرفه عبده على ، مرجع سابق ص ١٣-١٤.

(٢) د.محسن على شومان ، مرجع سابق ص (٣٤٦-٣٤٧).

بالتباين من حيث الدخل، والمستوى الاقتصادى، إلى حد التفاوت الشديد بين قمة ثرية منعمة، وقاعدة فقيرة معدمة وغيرهم من الموسرين ومتوسطى الحال، وصولاً إلى القاع الاجتماعى الذى مثله أرقاء وعبيد جروا فى ملكية آخرين [١] .

نابليون يؤكد على أهمية دور اليهود فى خدمة المطامع الاستعمارية :

نبه « نابليون بونابرت » إلى الدور الذى يمكن أن يلعبه اليهود المصريون ويهود الشرق عامة فى المشاريع الاستعمارية فى المنطقة ، وذلك من خلال دعوته لهم للوقوف إلى جانبه والانضواء تحت لوائه ، وعلى الرغم من ذلك فإن « محمد على » فرض حمايته على اليهود وحذر الأهالى من المساس بهم بسبب اتهامهم بالتعاون مع الحملة الفرنسية ، وأسهم ذلك إلى جانب حركة النهضة التى شهدتها مصر فى عهد « محمد على» فى نمو الطائفة اليهودية فى مصر،إذ بلغ عدد اليهود فى مصر سبعة آلاف نسمة عام ١٨٤٠ [٢] .

أثر قناة السويس على أحوال اليهود

تزايدت أوضاع اليهود ازدهارا مع افتتاح قناة السويس عام ١٨٦٩، ومع حركة الانتعاش التى شهدتها مصر فى تلك الفترة تبنى إسماعيل لمشروعه التجديدى غير المتوازن مع إمكانيات مصر المالية، مما أدى إلى الاستدانة من بنوك أوروبا ، وهى السياسة التى أدت إلى التدخل الأجنبى السافر واحتلال بريطانيا لمصر عام ١٨٨٢، ومع الاحتلال بدأت مرحلة جديدة ومهمة فى تاريخ اليهود وأحوالهم، ذلك أن الاحتلال وفر لهم الحماية التى جعلتهم يمارسون مختلف الأنشطة بعيداً عن أية متاعب أو رقابة، فما كان عام ١٨٩٧ إلا وقد أصبح نصف اليهود حاصلين

(١) د.محسن على شومان ، المرجع السابق ص (٣٤٩).

(٢) د. محمد عبد المؤمن محمد عبد الغنى ، موسوعة مصر والقضية الفلسطينية (١٩١٧-١٩٥٢) المجلد الأول ، المجلس الأعلى للثقافة ٢٠١٢ ، ص ٤٦١.

على الجنسيات الأجنبية.

ونتيجة لذلك زاد عدد أفراد الطائفة اليهودية فى مصر، فبعد أن كان عدد اليهود فى مصر قبيل الاحتلال البريطانى لايتجاوز عشرة آلاف نسمة ، وصل عددهم مع إجراء أول إحصاء رسمى عام ١٨٩٧ إلى ٢٥٢٠٠ نسمة [١].

الاحتلال البريطانى وأثره على الجالية اليهودية :

مما لاشك فيه أن الاحتلال البريطانى قد هيأ لليهود ظروفاً أنسب – للازدهار المالى والنفوذ الاقتصادى والسياسى، فلاحتلال الأوروبى – بصفة عامة – ارتكز فى محاولته لتوسيع مساحة نفوذه فى العالم العربى الاسلامى،على فرض الحماية والرعاية لأبناء الأقليات ، ومنحهم حقوقاً وامتيازات ، لم تكن متاحة للأغلبية ، بحيث تتحول الأقلية إلى « جيب سكانى » ترتبط مصالحه وطموحاته بالقوى الاستعمارية صاحبة الحماية [٢].

وإذا كانت الطائفة اليهودية فى مصر، قد حققت ازدهاراً على المستوى الاجتماعى والاقتصادى،أتاح لزعمائهـ نفوذا سياسياً وماليـاً، وعلاقات قوية بالقصر الملكى ، فقد حققوا أيضاً ازدهاراً ثقافياً، تمثل فى حرية التعبير المطلقة من خلال الصحف والمجلات ، التى كانت أبرز الوسائل فى التعريف بالفكرة الصهيونية والترويج لها .. وقد امتد النشاط الثقافى إلى مجالات الأدب والمسرح والموسيقى والسينما [٣].

حياة اليهود فى جو من التسامح بين طوائف الشعب المصرى :

إن الحقيقة الثابتة تاريخياً،أن يهود مصر لم يعانوا أى نوع من أنواع الاضطهاد، وأنهم عوملوا بروح التسامح والمودة وحسن الجوار بين المصريين، دون أية

(١) المرجع السابق ص (٤٦١-٤٦٢).

(٢) عرفة عبده على ، مرجع سابق ص ١٤.

(٣) المرجع السابق ص ١٦.

تفرقة بسبب عامل الدين [1].

وفى ظل هذا الجو من التسامح تمكن اليهود من ممارسة كافة أنواع النشاط ، كما استغلوا اهتمام المسئولين بالوحدة الوطنية ،وشهروا سيف التعصب فى وجه كل من سولت له نفسه مهاجمة اليهود أو التنبيه إلى خطورة النشاط الصهيونى سواء فى مصر أو فلسطين، وكان هذا السلاح كافيا لإسكات الأصوات التى كانت ترتفع ضدهم أو لصرف الناس عن الاستماع إليهم .

وهناك عوامل أخرى أسهمت فى إفساح المجال أمام النشاط الصهيونى فى مصر منها :

- سيطرة اليهود على جوانب مهمة من الاقتصاد المصرى، وقد كان هذا من شأنه أن يحول دون اتخاذ أية إجراءات ضد الصهيونيين الذين كانوا يتمتعون بدعم وتأييد معظم الرأسماليين اليهود .

- انصراف السلطات المصرية عن مقاومة النشاط الصهيونى حيث اعتبره البعض رافداً من روافد اليهودية ؛ مما أغرى المنظمة الصهيونية العالمية على جعل مصر أهم فروعها فى الشرق .

- إسهام بعض الصحف المصرية فى عرض وجهة النظر الصهيونية عملاً بحرية النشر مما ؛ كان له أكبر الأثر فى تضليل الرأى العام المصرى لفترة طويلة [2] .

وخلال الحرب العالمية الأولى تزايد عدد أفراد الطائفة اليهودية فى مصر بدرجة كبيرة نتيجة تدفق الهجرة اليهودية من فلسطين إلى مصر، إذ لجأ إليها خلال عام واحد من نشوب الحرب ١١٢٧٧ من يهود فلسطين فراراً من الإجراءات التى اتخذتها ضدهم السلطات العثمانية ، التى قامت بحل الكثير من تنظيماتهم

(١) المرجع السابق ص ١٧.

(٢) د. محمد عبد المؤمن محمد عبد الغنى ، مرجع سابق ص (٤٧٨).

الصهيونية،وحرمت استخدام اللغة العبرية على لافتات الشوارع والمحلات ، إلى جانب أن اليهود رفضوا التجنس بالجنسية العثمانية حتى يتجنبوا الانخراط فى الجيش العثمانى ، ففضلوا مغادرة فلسطين على ذلك [١] .

وأقام هؤلاء اللاجئين اليهود فى مدينة الإسكندرية ، فى معسكرات أطلق عليها اسم معسكرات التحرير،وأشرفت السلطات المصرية والبريطانية فى تقديم وسائل الراحة والدعم لهم .

تم تأسيس أول فرع للمنظمة الصهيونية العالمية فى مصر برئاسة « جاك موصيرى » ثم خلفه « جوزيف شكوريل » رئيسا للفرع عام ١٩٢١ [٢] .

النشاط السياسى وعمليات التجسس اليهودى فى مصر

ترسخت فى الوعى اليهودى - عبر التاريخ - مشاعر الإحساس بالضعف والعزلة والخوف والتشكك ... وأنهم بحاجة دائماً إلى قوة تحميهم وتزود عنهم ، بعدما تخلى الرب عنهم وتركهم يعانون « قدر اليهودى » اللعن والكراهية والشتات [٣] .

نلاحظ أن بداية النشاط الصهيونى فى مصر واكبت ظهور الصهيونية الحديثة ففى فبراير ١٨٩٧ ، وبعد صدور كتاب هرتزل « الدولة اليهودية » عام ١٨٩٦، أسس « جوزيف ماركو باروخ » جمعية صهيونية بالقاهرة باسم « جمعية بركوخبا الصهيونية » برئاسة « جاك هارملين » ، وقد نجحت الجمعية فى تأسيس فروع لها فى الإسكندرية وبورسعيد والمنصورة وصنطا .

وقبيل الحرب العالمية الثانية تأسس فى مدينتى القاهرة والإسكندرية وحدهما

(١) المرجع السابق ص (٤٦٢).

(٢) عرفة عبده على ، مرجع سابق ص ٢٤٧.

(٣) عرفة عبده على ، مرجع سابق ص ٣٣٧.

نحو ١٤ جمعية صهيونية ، هدفها الدعوة إلى الأفكار والأهداف الصهيونية ،وفى القاهرة تأسست جمعية أبناء صهيون عام ١٩٠٠ ،وجمعية الأدب العبرى عام ١٩٠٥ ، وجمعية أحباء صهيون عام ١٩٠٦ ،ولجنة التنسيق الصهيونية عام ١٩٠٩ ، وجمعية أبناء صهيون إلى الأمام عام ١٩١٠ وفى الإسكندرية أسس« شارل بغدادلى » أول جمعية صهيونية عام ١٨٩٨ ضم إليها صفوة الأشكنازيم والسفارديم ، ثم تحولت هذه الجمعية إلى فرع لجمعية بركوخبا عام ١٩٠١ ، ثم تأسست عدة جمعيات أخرى مثل جمعية أمل صهيون ١٩٠٤ ،وجمعية عمال صهيون وجمعية أبناء صهيون عام ١٩٠٦ ، وجمعية شبان صهيون ١٩٠٧ ، ثم اندمجت جمعية أبناء صهيون مع جمعية زئير صهيون عام ١٩٠٩ . وقد توحدت هذه الجمعيات عام ١٩١٧ تحت اسم « الاتحاد الصهيونى »[١] .

يؤكد « سعد يعقوب مالكى » ... رئيس تحرير صحيفة إسرائيل على أهمية الصهيونية ودورها فى إنقاذ الشباب اليهودى بقوله«من لطف الله بالأمة اليهودية أن قيض لها - وهى على وشك الوقوع فى اليأس من تحسن أحوالها - أن ظهرت إلى الوجود الحركة الصهيونية ، التى قدمت المثل الأعلى للشباب وللأمة بأسرها».

وبإيجاز شديد يمكننا القول أن الصهيونية العالمية قد استطاعت أن تجعل من مصر - أخطر مراكز نشاطها - فى الفترة من عام ١٩١٧ إلى عام ١٩٤٨.. فقد كانت مصر - دون أن تدرى أو تريد - معسكر الانتقال للصهيونية العالمية، والمحطة الرئيسية على الطريق إلى فلسطين، ولولا جهود زعماء الصهيونية وأعوانها فى مصر، لما استطاعت الصهيونية العالمية تأمين ظهر المستوطنين اليهود فى فلسطين،وضمان حركة التهجير إليها ، وتخفيف حدة التوتر العربى داخل فلسطين وخارجها ثم إعلان قيام دولة إسرائيل .

ونظراً لوجود طائفة يهودية كبيرة وثرية، يمكنها أن تؤدى دوراً مؤثراً فى خدمة

(١) المرجع السابق ص ٢٤٦.

الأهداف الصهيونية ، فقد أولت الصهيونية العالمية – مصر – اهتماماً خاصاً[١].

أما الدوافع التى حثت عدداً كبيراً من أبناء الطائفة اليهودية فى مصر لتأييد الصهيونية فهما دافعان :

الأول : دينى يتمثل فى الرغبة فى تحقيق نبوءة الرب فى العودة إلى أرض الميعاد .

الثانى : مساعدة اليهود المضطهدين فى أوروبا، وقد ذهب هؤلاء إلى تأسيس الجمعيات الصهيونية التى كانت تتولى جمع التبرعات وإعداد الشباب اليهودى تمهيداً لتهجيرهم إلى فلسطين،وإصدار الصحف الصهيونية بلغات متعددة بما فيها اللغة العربية لحشد يهود مصر وراء الهدف الصهيونى ، وهو إقامة دولة يهودية على أرض فلسطين [٢] .

تجدر الإشارة إلى أن الجمعيات الخيرية والأندية اليهودية ، تحولت إلى ساحات للترويج للفكر الصهيونى،حيث كانت تضم عددا كبيراً من شباب اليهود المتحمسين للصهيونية ، وحلم الوطن القومى،وكان عملاء الصهيونية العالمية قد نجحوا فى تجنيد معظم أعضاء هذه الجمعيات ، والأندية .. فتحولت من نشاطها الاجتماعى إلى النشاط السياسى [٣] .

حظر الصهيونية فى مصر :

تزايدت المواجهات المسلحة فى فلسطين بين العصابات اليهودية والمجاهدين العرب فى مطلع عام ١٩٤٨، واتخذت جامعة الدول العربية قراراً يلزم البلدان العربية بإصدار تشريع لمكافحة الصهيونية،وتنفيذاً لهذا القرارأصدرمجلس النواب المصرى قانوناً بمكافحة الصهيونية فى ١٦ فبراير ١٩٤٨،وحدد القانون بالصهيونية أنها كل فكرة أو مشروع أو منظمة يكون غرضها

(١) المرجع السابق ص ٢٤٥.

(٢) د. محمد عبد المؤمن محمد عبد الغنى ، مرجع سابق ص (٤٧٨- ٤٧٩).

(٣) عرفة عبده على ، مرجع سابق ص ٢٤٨.

نقل المهاجرين إلى فلسطين ، أو السعى لتكوين دولة يهودية بها أو تأييد هيئة تدعو إلى ذلك .

وتلا صدور قانون مكافحة الصهيونية بأيام معدودة الكشف عن شبكة صهيونية فى مصر،إذ تم القبض على ثلاثة أشخاص يقومون بتصوير ميناء الإسكندرية وقطع البحرية المصرية ، وتم ضبط عدد كبير من الكتيبات والمنشورات والوثائق التى لها علاقة بالنشاط الصهيونى فى العالم،وذلك من خلال قيام البوليس بتفتيش الأندية التى ينضمون إليها ، ومنها نادى الكشاف الصغير بالإبراهيمية بالإسكندرية،والذى اكتشف أن له برنامجا يقوم على تدريب الشبان اليهود على أعمال الهاجاناه وتعليم اللغة العبرية [1] .

أعمال التجسس فى الرواية

أظهرت الرواية قيام بعض اليهود بأعمال التجسس لصالح إسرائيل ضد الدولة المصرية ، كما أشار إلى اهتمام بن جوريون الشخصى بـ« يولندا هرمر » ، وإرسال سيارة مسلحة من أجل توصيلها إليه .

« من وراء نوافذ مغلقة فى شقة فاخرة فى الدور الثانى فى عمارة سكنية فى شارع عدلى باشا فى القاهرة، جلست امرأة جميلة وممشوقة القوام تبلغ من العمر خمسة وثلاثين عاماً، قفلت بحذر صفحات تقارير مكتوبة باللغة العربية وقامت بحياكتها داخل نسيج الكتف الذى بطن ثيابها .

الخادم السودانى وقف بجوار باب الشقة ، مستعد أن يغلق بجسده الطريق أمام الضيوف الغير مرغوب فيهم، أن يفعل أى شيء من أجل أن تنتهى سيدته من إخفاء آثار فعلتها إذا حاولت الشرطة السرية الاقتحام إلى الداخل .

لكن لم يصل أحد، « يولندا هرمر» أنهت بسرعة مهمة الخياطة وارتدت

(١) د. محمد عبد المؤمن محمد عبد الغنى ، مرجع سابق ، ص (٥٠٩- ٥١٠).

ثيابها،طائرة ركاب صغيرة لشركة الطيران المصرية اعتادت على الطيران إلى مطار اللد مرات قليلة فى الأسبوع، ونجحت فى حجز مكان فى رحلة الطيران فى صباح اليوم القادم متزودة بحقيبة صغيرة سافرت بتاكسى إلى مطار ألماظة بجوار القاهرة وهبطت فى ساعة الظهيرة فى اللد ، دافيد بن جوريون، الذى قاد حرب اليشوف العبرى ، أرسل سيارة بحراسة مسلحة من أجل إحضارها إلى مكتبه فى تل أبيب، عندما دخلت إلى غرفته قام نحوها وصافحها، لقد ترقب مجيئها بفارغ الصبر .

جميل أن أراك يا « يولندا »، أنت تبدو جميلة كالمعتاد دائماً ، قال وسأل فوراً هل أحضرتيها ؟وإلا ماذا ؟ ضحكت ، كان لها ضحكة رقيقة ، تقريباً خجولة ، كشفت عن أسنان بيضاء ، وجهها كان أسمر من الشمس القاهرية ، وشعرها مصبوغ بلون البلاتين، امرأة قصيرة القامة وممشوقة القوام ، تفيض بجمال يستطيع فقط قلة من الرجال الصمود أمامها .

بسطت بردة ثيابها ، أزالت بسرعة خيطة وسادة الكتف واستست منها المخبأ ، بن جوريون أخذ الصفحات واستدعى سكرتيرته « أريد أن تترجموا هذا فوراً » قال لها سألها« يولندا » متى ستعودين إلى القاهرة ؟

فى صباح غداً ، هناك الكثير من العمل .

قال بن جوريون : أنا أعلم وأنى عاجز عن الشكر لك ، وطلب شاى لكليهما وطلب :

احكى لى ماذا يحدث فى القاهرة .

« توجد مظاهرات من أجل غزو (أرض إسرائيل)، ولكن الحكومة غير متأثرة بذلك ، مثلما تبدو الأمور الآن، لاتوجد فرصة أن تنضم مصر لهم .

معارضة الحرب جاءت ليست فقط من الحكومة ولكن من الجيش ، ضباط بارزون خائفون من أن الجيش ليس مؤهلاً ، ولن يكون قادراً على الفوز فى الجبهة .

الجهود المصرية فى القضية الفلسطينية

أظهرت الرواية الجهود والمساعى المصرية من أجل التوصل إلى حل سلمى للقضية الفلسطينية ، وإجراء اتصالات بين سياسيين مصريين ويهود فى القدس من أجل المساعدة فى إخراج البريطانيين من مصر، وفى ذلك إشارة إلى دور اليهود فى تحريض بريطانيا على غزو مصر حيث قامت بريطانيا بغزو مصر عام ١٨٨٢ ،بعد عام من بدء نشاط الحركة الصهيونية وإنشاء جمعية أحباء صهيون عام ١٨٨١ فى روسيا .

قرار مصر بعدم غزو (أرض إسرائيل) لم يفاجأ بن جوريون، فى السنوات الثلاث التى سبقت قرارالأمم المتحدة بشأن تقسيم (أرض إسرائيل)، إلى جانب التصريحات المصرية العلنية ضد الصهيونية، التقى سراً سياسيون يهود ومصريون فى القدس، فى القاهرة وفى واشنطن وأجروا مناقشات من أجل التوصل إلى حل سلمى يكون مقبولاً من جانب اليهود والعرب على السواء هم أيضاً الذين اقترحوا أن تطلب الوكالة اليهودية أن تشترك كعضوة نظامية فى الجامعة العربية ، اعتقد السياسيون المصريون أنه طالما استمر الصراع فى (أرض إسرائيل) ، لن يكون من الممكن إخراج البريطانيين من مصر ، ولقد وعدوا بمساندة حل سلمى ، مقابل تعهد بأن يساعدهم اليهود فى تحريك البريطانيين للخروج من بلادهم .

قبل رحلة الطيران السريعة ليولندا هرمر إلى البلاد بأيام قليلة ، أقامت الجامعة العربية « لجنة عسكرية » ، مهمتها إدارة جيش الإنقاذ ، تحت قيادة « فوزى القاقوجى »، كان من المقرر أن تقوم هذه المنظمة العسكرية أن ترسل إلى (أرض إسرائيل)وحدات محاربة تقوم بالعمل مع التنسيق مع العرب المحليين من أجل منع خطة التقسيم ، كان يقف على رأس اللجنة العسكرية « إسماعيل صفوت » نائب رئيس الأركان العراقى، وهو رجل عسكرى ذو خبرة ، الذى تقدم فوراً

لكتابة تقرير خاص عن إنشاء جيش الإنقاذ، تعبئة المحاربين،وطرق التمويل،وإمكانيات التدريب،والعتاد والسلاح وخطط الحرب. هذه الوثيقة ، التى صنفت على أنها سرية جدا ، وتم تقديمها إلى سكرتارية الجامعة ، أرادها بن جوريون – وكان يولندا الشخص الوحيد القادر على القيام بذلك .

إشارة الكاتب إلى أهمية الجاسوسة « يولندا هرمر » حيث كانت لها علاقات مع العديد من الطوائف داخل المجتمع المصرى ، وأنها كانت تستطيع الحصول على أية معلومة تريد معرفتها عن طريق علاقاتها مع مجموعة من كبار المسئولين .

يولندا هرمر كانت جاسوسة ماهرة، الأكثر فائدة بين عملاء القسم السياسى للوكالة فى مصر، جميلة ، فاخرة الثياب، امرأة مجتمع مشهورة، نسجت مجموعة من العلاقات فى القيادة وأدارت شبكة من المخبرين (اليهود / العرب / البريطانيين) كانوا مستعدين مقابل مبالغ مالية بسيطة ، وجبة عشاء بصحبتها أو علاقات غراميةكانوا مستعدين أن يعطوها كل معلومة تطلبها ، من بينهم كان أعضاء من إدارة الإخوان المسلمين، موظفون بارزون فى شعبة المخابرات الجيش البريطانى فى مصر .

علاقة « يولندا هرمر » بالقصر الملكى

فى الظاهر كانت صحفية، ممثلة وكالة الأنباء اليهودية (وكالة تليغراف أرض إسرائيل) ومراسلة لعدد من الصحف فى الولايات المتحدة ، لكن عملها الصحفى كان مجرد تمويه فقط ، مع إقامة الجامعة العربية فى عام ١٩٤٥ تحولت القاهرة إلى مركز النشاط السياسى فى العالم العربى .

كل معلومة حول مناقشات الجامعة، حول برامجها،حول الرجال الذين تزعموها كان ضرورياً ، يولندا أحاطت نفسها بشخصيات سعوا إلى مصاحبتها ورغبوا أن يكونوا من أحبابها، ذات مساء عندما تناولت الطعام مع رجل اقتصادى مصرى كبير فى المطعم الفاخر لفندق « شفاردس » ، لاحظت وجود الملك

«فاروق» الذى جلس فى مكان ليس بعيداً عنها ، بدون تردد رفعت يدها، وجذبت انتباهه، ولوحت له بود، ونادت نحوه « هالو » . دفعة واحدة طبق صمت فى قاعة المطعم ، التوجه العلنى إلى الملك أدهش جميع الحاضرين ، فاروق مال إلى مساعده وهمس له بشيء، هم دعوا « يولندا » إلى مائدته وهى قامت فوراً من مكانها ، وأمام النظرات المتعجبة لنزلاء المطعم سارت بخطوات بطيئة نحو الملك، ودعاها « فاروق » للجلوس .

قالت بصوت عذب « أنا آسفة لأنى أزعجتك »، لكن لم يكن أمامى اختيار آخر ، حكت له أن هيئة التحرير فى صحيفتها فى نيويورك أبلغتها أنها ستفصل إذا لم تعقد لقاء مع الملك، قالت « جسرت على التلويح لك لأنه لم يكن أمامى اختيار »، علمت أننى سأتعرض للسجن، لكنى خفت من البقاء بدون عمل،هى عقدت هذا اللقاء ولا أحد يعلم كم مرة التقت مع « فاروق » منذ ذلك الحين ، هناك حقيقة واحدة واضحة : إنها لها معلومات حيوية مباشرة من الفناء الملكى .

تفاصيل حياة الجاسوسة « يولندا هرمر » :

« يولندا هرمر » ولدت فى الاسكندرية فى التاسع والعشرين من نوفمبر عام ١٩١٣ ،لأب يهودى من أصل تركى ، الذى أدار أعمال عائلة مصرية – تركية ثرية ، والداها أرسلوها لتتعلم فى مدرسة فخمة فى باريس ، هناك أظهرت محبة كبيرة للأدب وللمسرح ، عندما عادت إلى الإسكندرية ، قاما والداها بتزويجها رغما عنها لابن عائلة « ديه – بوتين » ، أصولها تنتمى إلى مطرودى أسبانيا ، زواجهما انتهى بعد ولادة ابنهما « جلبرت » .

بعد تطليقها ، قابلت فى القاهرة « جوليان جرينبرج » ، يهودى من جنوب أفريقيا ، صهيونى متحمس ، مثقف ، محب للموسيقى ، الأدب والفن ، جاء إلى مصر من أجل إدارة شبكة محلات ملابس للنساء ، زوجته وابنته الصغرى لم يأتوا معه .

يولندا أحبته وبادلها الحب ، هم أكثروا من التنزه فى مصر ، وذات مرة وصلوا معاً للقدس .

كان جوليان يعرف « بن جوريون » شخصياً ، و« موشيه شرتوك » (شاريت) رئيس القسم السياسى للوكالة اليهودية .

قدم لهم محبوبته ، وهى سحرتهم ، شرتوك تردد وراءها بشغف ، وقام الياهو ساسون رئيس الشعبة العربية فى الوكالة بإقناعها لتكون جاسوسة فى القاهرة .

وعد « جرينبرج » بالزواج من يولندا ، ولكنه خاف من طلاق زوجته ، توصلت يولندا إلى هذا الاستنتاج المحتمل الوحيد ، وتركته ، ولكن لم تبق وحيدة كثيراً، كان الرجل الجديد فى حياتها هو « هارى هرمر » ،طيار فى سلاح الجو الجنوب أفريقى، وسيم ومثقف ، هم التقوا فى مقهى على ضفاف النيل ، تزوجوا وعاشوا فى سعادة ، حتى توفى « هارى » فى حادث طائرة ، وعندما تلقت يولندا خبر وقوع هذه المصيبة ، حاولت الانتحار بالقفز من شرفة شقتها ، أقاربها أنقذوها فى اللحظة الأخيرة .

علاقات يولندا هرمر بالشخصيات الهامة

فى غضون فترة قصيرة تزوجت مرة أخرى، وطلقت بعد ذلك تقريباً، خيبة الأمل من الأزمات التى تعرضت لها ، جعلتها تخصص كل وقتها من أجل جمع المعلومات من أجل الوكالة ، المديح الذى تلقته من وكلائه فى القدس كان العوض عن الفراغ الذى تركه فى قلبها الأزواج الذين جاءوا وذهبوا. هى كسرت قلب كل رجل استطاع أن يزودها بالمعلومات التى أرادتها .

« ريتشارد جيلس » رئيس الشرطة السرية البريطانية فى القاهرة ، كان أحدهم ، مصدر معلومات مهم آخر كان « تقى الدين الصالح » سفير لبنان ، ونائب سكرتير الجامعة العربية ، الذى كان على صلة صداقة معها باستمرار على الرغم من

الشكوك بأنها تعمل فى التجسس ، على إصبعها الصغير كان يدور أيضا سفير السويد فى مصر، «فيدئر باجا » الذى كان يتردد وراءها وسمح لها باستخدام البريد الدبلوماسى الخاص به ، ونقل المعلومات التى جمعتها ، هناك كان اسمها السرى « نيكول ».

عن طريق علاقاتها ، علمت يولندا بالتقرير الذى يتحدث عن تعبئة المقاتلين العرب الأوائل لـ« جيش الإنقاذ » الذى قدمه للجامعة العربية « إسماعيل صفوت»، وهى أبلغت القدس أنها تستطيع الحصول على الوثيقة ، لكن ينبغى عليها أن تدفع للوسيط ٣٠٠ جنيه مصرى .

على الرغم من كون هذا المبلغ كبير جدا حسب تقدير هذه الأيام ، لكن وافق بن جوريون على دفع المبلغ بدون تردد ، قال « إذا كان هذا المبلغ سيمنع حتى قطرة دم واحدة من مقاتل يهودى ، يجب أن يدفع » .

عندما حصل « بن جوريون » على الصيغة المترجمة من الوثيقة، قرأها بعناية بالغة ، قدر « إسماعيل صفوت » أن لدى يهود (أرض إسرائيل) قوة عسكرية فورية بحوالى ١٥٠٠٠ رجل جاهزون للقتال ، وعدد مضاعف من الرجال مدربين ، من الممكن تعبئتهم بسرعة .

خمن بأن فى المخازن المخبأة يحتفظ اليهود بمدرعات وأسلحة ثقيلة ، مفككة لكن من الممكن تركيبها سريعاً، وأعرب عن مخاوفه بأنه فى وقت الضرورة ، سيكون من الممكن تعبئة متطوعين يهود من جميع أنحاء العالم، الذين سيأتون من أجل الحرب بجانب إخوانهم .

اعتقد « صفوت » أن حرب العصابات لن تنجح فى إخضاع يهود (أرض إسرائيل) وأن الجيوش العربية فقط ، تحت قيادة موحدة ، تستطيع أن تقوم بذلك .

أصر على ضرورة تعبئة متطوعين كثيرين بقدر الإمكان ، امتلاك أسلحة وطائرات ، التقرير لم يعط تفاصيل عن وضع السلاح العربى ، أيضاً ليس عن خطط الغزو ، لكن كان يحتوى على توصية واضحة للحرب .

راحة عشية السبت أحاطت حى الفسطاط فى قلب القاهرة ، فى المعبد القديم «بن عزرا» انتهت الصلاة والمصلين يرتدون ملابس الاحتفالات ، توجهوا فى طريقهم لتناول وجبة السبت فى منازلهم ، فى الجو الصحو فى ذات المساء فى نهاية ديسمبر ١٩٤٧ لم تنته كل علامات مثيرى القلق ، لكن هم كانوا هناك ينتظرون اللحظة المناسبة .

فى القاهرة سكن اليهود منذ القرن السابع الميلادى ، فى القرن الحادى عشر أيضاً فى الحى القديم « موشيه بن ميمون » ، الحاخام ، الفيلسوف ومن كبار الفقهاء ، الذى كان أيضا طبيب فى بلاط حكام مصر ، بعد ذلك وصل إلى مصر كثيراً من مطرودى الاضطهاد فى أسبانيا وعدد اليهود فى القاهرة زاد بسرعة .

كبار الأغنياء سكنوا هناك بجوار فقراء معدومين ، أنشأوا هناك مدارس نظرية وعملية ، موائد وملاجئ للفقراء، مدارس وفروع كبرى من كل الحركات الطلائعية من (أرض إسرائيل) .

أحوال الجالية اليهودية فى مصر قبل الحرب وموقفها من الحرب :

تاجر السجاد الغنى « أفراهام شاؤول » وأبنائه الاثنين ، عزرا ويعقوب ، تلاميذ المدرسة الفرنسية فى القاهرة ، تفرقوا عن زملائهم بالمصافحة ، وساروا تجاه منزلهم الواسع ، رائحة الوجبة التى أعدتها الأم « استير » استقبلتهم ، أبناء الأسرة التفوا حول المائدة المعدة فى غرفة الطعام فى الطابق الأول ، صاحب المنزل دعا دعاء القداس على النبيذ ، غسل يديه وقال دعاء الطعام ، بعد ذلك أزال غطاء القطيفة الفاخر من فوق رغيف الخبز وشقه .

بعدما بدأوا فى الأكل بدقائق قليلة سمع طرقات قوية على الباب ، الجالسون على مائدة الطعام نظروا إلى بعضهم البعض بدهشة ، أبداً لم يزعجهم أحد على وجبة عشية السبت .

همهم أفراهام شاؤول : أتمنى ألا تكون هناك كارثة وتوجه لفتح الباب ، ثلاثة من العرب المرتدين جلاليب بيضاء وقفوا فى المدخل ، هو لم يعرف أحداً منهم . أحد الثلاثة قال : جئنا لنأخذ تبرع للحرب فى الأرض المقدسة .

شاؤول لم يفهم . من أنتم ؟ سأل .

« نحن من الإخوان المسلمين . كثيراً منا سيتوجهون إلى فلسطين، للقتال هناك، نحن بحاجة إلى أموال من أجل السلاح والعتاد .

الإخوان سكبوا البنزين على نيران الكراهية فى (أرض إسرائيل) منذ فترة طويلة قبل أن تقرر الأمم المتحدة إقامة دولة يهودية . زعيم المنظمة الشيخ حسن البنا ، كان يعمل مدرساً فى السابق ، أقسم على الحرب إلى جانب عرب فلسطين حتى يقوموا بإلقاء اليهود فى البحر ، جمع تبرعات واشترى أسلحة ، ساعد عصابات المفتى المقدسى وعصابات الإرهاب على اسم الشيخ « عز الدين القسام» ، وهو واعظ دينى فى حيفا قتل على أيدى البريطانيين عام ١٩٣٥ .

ارتعدت فرائص شاؤول، لكن أنا يهودى .. ليس لى صلة بهذه الحرب .. تمتم .

أنت قبل كل شيء مصرى ، وبخه أحد هؤلاء الضيوف الغير مدعوين، أنت كمواطن مصرى ، واجبك أن تساعدنا .

وعى الشعب المصرى بالصهيونية

أظهرت الرواية وعى الشعب المصرى وفهم الفرق بين اليهودية والصهيونية ، وأن الصهيونية تختلف اختلافاً كبيراً عن اليهودية القديمة .

هم لم يصلوا وأيضاً لم يتصلوا لشرح لماذا ، لكن كان هناك تخمين لدى «كلارط تسوكرمان» ، فى الدرس الأخير تحدثت معهم حول قرار الأمم المتحدة بشأن إقامة دولة يهودية فى (أرض إسرائيل) ،كلا المحاميان كانا منزعجين جداً، هم اعتقدوا أن الأمم ارتكبت ظلماً فاحشا تجاه العرب لأن لهم ملكية كل أرض فلسطين .

تحدثت « كلارط تسوكرمان » عن وطن الشعب اليهودى ، هى حكت لهم عن النشاط الصهيونى بين الشباب اليهودى فى القاهرة ، « علمنا أنك يهودية » ، تعجب أحدهم ، من المفزع أن نفكر أنك أيضاً صهيونية .منذ ذلك اليوم لم ترهم ثانية .

تسامح الشعب المصرى مع الطائفة اليهودية

مساندة نضال عرب (أرض إسرائيل) ضد الدولة اليهودية، أثر على كل طبقات المجتمع فى مصر ، وتسبب فى تغيير واضح فى علاقة المجتمع تجاه ٨٥ ألف يهودى عاشوا بجوارهم .

حتى قرار الأمم المتحدة تمتع يهود مصر بجنة عدن فياضة خيرة .

كثير من الأغنياء سكنوا فى منازل فاخرة فى حى الزمالك بجوار النيل، أرسلوا أولادهم إلى مدارس فاخرة فى باريس ، شغلوا وظائف فى الجيش ، أقاموا حفلات خطوبة لأبنائهم وبناتهم فى النوادى اليهودية وأقاموا حفلات، اشترك فيها أيضاً كبار مسئولى السلطة والمجتمع الغير يهودى، تطورت مجموعة من العلاقات التجارية المتشعبة وصلات الصداقة المتينة بين اليهود وسائر أجزاء المجتمع ، كثير من زميلات كلارط تسوكرمان ، ابنة طبيب الأسنان ، الذى سكن فى الزمالك، كانوا بنات رجال أغنياء غير يهود ، وفى يوم عيد الغفران جاءوا معها إلى المعبد وصاموا أيضا كدليل على التضامن معهم .

تزايد نشاط الحركة الصهيونية على أرض مصر :

على الرغم من الجو المعادى استمر العمل بين الشباب الصهيونى علانية ، فى النوادى حكوا عن (أرض إسرائيل)، وفى الحقول افترشوا الأرض بجوار المقابر الخاصة بالقاهرة ، وتدرب الفتيان والفتيات على استخدام العصى للدفاع الذاتى قبل هجرتهم إلى البلاد .

فى إحدى أجازاتها سافرت كلارط مع مجموعة من الشباب اليهودى للتدريب فى كيبوتس جفعات برنر، وقابلت هناك المرشد « جيدى إيلات » من البالماح، وربطت بينهم صداقة قوية .

عندما أوشكت على العودة إلى مصر ، أعطته صورتها ، وهو أعطى لها صورته مع إهداء خاص .

عندما عادت للقاهرة اكتشفت أن الجو أصبح أكثر تعكيراً، الطلبة العرب فى جامعة القاهرة ، الذين كانوا أمس وأول أمس من ضمن أصدقائها الأعزاء ، أعطوها ظهرهم ، ولم يكلموها كلمة .

وصلت إلى الشرطة كثير من خطابات الإبلاغ عن اليهود الذين عملوا فى النشاط الصهيونى ، رجال شرطة بالزى المدنى طرقوا أبواب اليهود فى القاهرة وفى مدن أخرى ، وأوقفوا المشتبه فيهم فى النشاط الصهيونى ، فى أعقابهم جاء الجمهور الذى سلب منازل اليهود ، وضربوهم قبل اعتقالهم .

بعد مضى فترة من الوقت، هاجم رجال شرطة مصريون منازل يهودية مرة ثانية ، وأرسلوا سكانها إلى معسكر الاعتقال فى الهايكستب فى هليوبوليس ، وعندما تم إطلاق سراحهم فى النهاية ،وطلبوا الخروج من مصر ، سمح لكل واحد منهم ألا يأخذ معه أكثر من ٢٠ جنيها مصرياً ، والملابس التى يستطيع وضعها فى حقيبة واحدة ، كل ممتلكاتهم صودرت ، ومن بين الـ ٨٥ ألف يهودى الذين عاشوا فى

مصر ، تبقى بها على مر السنين ليس أكثر من ٦٠ عجوزاً .

لكن شرتوك لم يسرع بالرد، يولندا بقيت منفردة فى القاهرة ، تحاول أن تخلص نفسها وابنها من مصر بقواها الذاتية، أصدقاؤها المخلصون جداً خافوا من مساعدتها ، الآخرين طلبوا مبالغ مالية كبيرة لم تكن متوفرة لديها ، هى جلست فى المكتب الخالى للوكالة اليهودية واتصلت بدون توقف بكل من لم يرد عليها رداً سلبياً ، وحينئذ اندفع إلى الداخل رجال لشرطة واعتقلوها وفقا لتعليمات شخصية من رئيس الحكومة « النقراشى » باشا ، الذى خضع لمطلب « الإخوان المسلمين » لاعتقال الجاسوسة الخطيرة .

الإجراءات التى قامت بها الحكومة المصرية لإيقاف نشاط الصهيونية

أظهرت الرواية أن مصر اتخذت إجراءات شديدة من أجل حظر الصهيونية فى مصر وأن السلطات المصرية قامت باعتقال الآلآف من اليهود فى مصر .

فى نهاية أبريل ١٩٤٨ تم اعتقال حوالى ١٠٠٠ ناشط صهيونى فى مصر ، تم اعتقال أيضا غالبية العاملين فى فرع الوكالة اليهودية بالقاهرة ، الذى عملت فيه يولندا هرمر ، وصل إلى شقة « يولندا هرمر » ضابط كبير فى الشرطة السرية ، الذى يعد من دائرة أصدقائها ، لقد جاء بمفرده ، مرتدياً زيا مدنياً ، وتسلل إلى الشقة بعدما كان من الواضح له ، أنه ليس هناك أحد يعرفه .

البسمة التى علت على وجه يولندا عند رؤيته تلاشت عندما حكى لها عن حملة الاعتقالات الجماهيرية ، جئت لكى أعلمك أنك أيضا موجودة فى القائمة ، قال لها اهربى من هنا قبل أن يكون الوقت متأخراً .

فى نفس الليلة انتقلت مع ابنها إلى منزل أصدقاء لها ، بعد مجموعة مكالمات تليفونية اتضح لها أن غالبية معارفها وأصدقائها فى العمل تم اعتقالهم، وفى غداة اليوم الثانى أرسلت تقرير أخير إلى القدس ، بواسطة رجل اتصالات فى باريس،

هى أرسلت بيانات جديدة عن سلاح الجو المصرى ، وكتبت فى نهاية التقرير :

وضعى هنا حرج جداً .

أنا لازلت فى الخارج بفضل تأثير الأصدقاء ، لن أرفض تغيير الجو ، أبلغ « ايلى بلج » مبعوث الوكالة فى القاهرة الذى نجح فى الهرب من هناك فى الوقت المناسب « موشيه شرتوك » أن يولندا بقيت بمفردها ، وغالبية أعضاء الوكالة الذين عملوا معها تم اعتقالهم ، أو امتلأوا خوفاً واختفوا، حكى أن كبار المسئولين قطعوا علاقاتهم معها، وأن معجبها المتحمس ، سفير لبنان « الصالح » لم يهتم بالرد على اتصالاتها .

فى نفس المساء أصيبت بالحمى ورقدت على سريرها فاقدة الوعى ، مدير السجن استدعى طبيباً ، قام بفحصها وأوصى بإجراء فحوصات أخرى .

لكن النتائج كانت مقلقة جداً ، الطبيب جاء بنفسه ليبلغها عن ذلك .

قال : للأسف « لاتوجد لدى بشارة طيبة ، ياسيدتى ، يوجد لديك سرطان» .

هى نظرت إليه بقلب خافق من الخوف .

همست ، هل من الممكن معالجة هذا المرض .

هز الطبيب رأسه بالنفى .

كم من الوقت متبقى لى فى الحياة ؟

« ليس كثيراً ، سيدتى ، على أية حال ، سأوصى بإطلاق سراحك فوراً من السجن .

توجه « الياهو ساسون » رئيس الشعبة العربية فى الوكالة اليهودية إلى باريس ، وعمل من هناك من أجل إنقاذ « يولندا » من مصر ، كان تقديره الذى اعتمد إلى حد كبير على التقارير المفصلة التى أرسلتها فى الأشهر الأخيرة ، أن مصر هى الدولة العربية الوحيدة

التى ستكون مستعدة فى المستقبل للوصول إلى اتفاق سلام مع إسرائيل .

أجرى ساسون اتصالات مع شخصيات فى القيادة المصرية . وأراد إقناعهم بأن « يولندا » من الممكن أن تكون مساعد كبير فى الوساطة بين الأطراف ، وقد أثمرت جهوده وبعد مرور فترة قصيرة حصلت على أذن بالخروج من مصر ، قبل سفرها طلب النقراشى باشا مقابلتها ، وتمنى لها الشفاء السريع ، وقال أبلغى رؤساءك أنه فى المستقبل ربما نجرى اتصالات سياسية .السفينة التى حملت يولندا وجلبرت على ظهرها فى الطريق إلى فرنسا، تحركت ببطء من الرصيف ، الساحل المصرى ابتعد بسرعة، ونظرت يولندا بحزن إلى منازل الإسكندرية المختفية فى الأفق ، فى هذه البلد وجدت وفقدت حب حياتها، هى عملت هناك كجاسوسة متميزة ، ولكن لم تنه دورها كما رغبت ، وأيامها أصبحت معدودة .

العرب واليهود بعد صدور قرار التقسيم

أشار الكاتب إلى تغير الحال بين العرب واليهود بعد صدور قرار الأمم المتحدة بتقسيم فلسطين .

وقت العلاقات الطيبة انتهى عندما قررت الأمم المتحدة إنشاء الدولة اليهودية ، فتح قناصون النيران تجاه مستوطنة « كفار داروم »، وأثناء الليل سرقت من الحقول معدات زراعية غالية ، قام متسللون بتدمير أنابيب المياه التى امتدت من نيرعم فى الجنوب ، وقبل فترة من غزو الجيش المصرى ، حاولت وحدة من الإخوان المسلمين التى جاءت من مصر احتلال المستوطنة .

لقد كانوا مسلحين بأسلحة كثيرة ، وببركة زعيم المنظمة حسن البنا ، مصممون على الفوز وإثبات أنهم لايقلون كفاءة عن وحدات الجيش النظامية، التى على وشك الدخول إلى المعركة ، بدأت المعركة بموجة قوية ، بصرخات قتالية وبنيران جهنم من البنادق والرشاشات ، لكن القتلى المصريون الأوائل الذين سقطوا فى ميدان القتال بعد إصاباتهم إصابات دقيقة من نيران المدافعين عن

الكيبوتس، جعلوا الروح القتالية للإخوان المسلمين"تنهار سريعاً ، وأسرعوا فى الانسحاب .

موقف الطائفة اليهودية من الحرب

« نشر الحاخام الأكبر للطائفة فى القاهرة «حاييم ناحوم » فى ١٨ مايو بعد إعلان الحرب بثلاثة أيام تصريحاً يناشد فيه أبناء طائفته بالتبرع إلى الجيش المصرى لمساعدته فى مهمته فى فلسطين والدعاء للملك والجيش ، غير أن الحكومة المصرية وكتأثير مباشر للأحداث فى فلسطين بدأت حملة ضد بعض اليهود المقيمين فى مصر من المشتبه فى صلتهم أو انتمائهم للصهاينة ، وفى ٣٠ مايو ١٩٤٨ صدر أمر عسكرى أثار قلق اليهود من الإجراءات التى اتخذتها السلطات تنفيذاً لهذا القرار من مصادرة أموال أو إبعاد اليهود الصهاينة ، فضلاً عن حوادث الاعتداء على بعض المحال والممتلكات المملوكة لهم »[1].

بعد الظهر زار قصر عابدين وفد من الطائفة اليهودية ، برئاسة الحاخام الكبير «حاييم ناحوم أفندى»، وطلبوا مقابلة الملك ، لكن فاروق غاب عن القصر بسبب جولة فى معسكرات الجيش ، بدلاً منه قابل أعضاء الوفد سكرتير الملك ، طلب الحاخام أن ينقل للملك شكر الطائفة على البيان الذى أعلنه خلال لقاء مع صحيفة المقطم ، بأن المصريين لايكنون أى عداء تجاه اليهود فى بلادهم، تعهد حاييم ناحوم بأن الطائفة ستحافظ على ولائها لفاروق أيضاً فى وقت الحرب ، السكرتير تعهد بنقل الرسالة إلى الملك، وعندما خرج من هناك قال الحاخام لمرافقيه ، لسبب ما أنا قلق جدا ، يقول لى قلبى أن هناك أيام صعبة تنتظرنا.

حرب فلسطين فى الصحف الغربية :

تحدثت صحف تشيكوسلوفكيا بإستفاضة عن الغزو المتوقع للجيوش العربية ،

(١) د. محمد عبد المؤمن محمد عبد الغنى ، مرجع سابق ص (٥١١).

كانت التقدير العام أن الانتصار العربى وشيك، المواطنون فى التشيك ترجموا المكتوب فى الصحف لطيارى « المسرشميدتيم »، وهؤلاء غرقوا فى حزن أسود، البقاء المستمر فى تشيكوسلوفكيا وتر أعصابهم ، هم أرادوا العودة والحرب .

كان واضحا أمام الطيارين أنهم لن يكملوا كورس التدريب فى وقتها ، هم حثوا معلميهم ، أعلنوا أنه على أية حال لن ينفذوا ٧٠ عملية إقلاع طيران منفردة كما هو مطلوب وسيكتفون بأقل من عشر عمليت ، هم أيضا قالوا أنه لن يكون أمامهم وقت لإجراء تدريبات إطلاق النيران ، وعندما يصلون إلى إسرائيل سيقومون بتدريبات إطلاق النار فى الجبهة ، ابلغ الطيار « فينى بن بوريت » لقائد الكورس .

المساعى السورية للحصول على الأسلحة

بعد ذلك بفترة وصل إلى مطار روما « فؤاد مردم بك » ممثل حكومة سوريا وقريب عائلة رئيس الحكومة السورى ، استقل القطار إلى بئرى، المدينة الساحلية فى شرق إيطاليا ، وسافر مباشرة إلى الميناء .

بجوار الرصيف القديم كانت بقايا سفينة الشحن « لينو» غارقة فى المياه الملوثة ، وكانت على وشك أن تنقل شحنة بنادق من تشيكوسلوفاكيا إلى سوريا، وتم تفجيرها على أيدى مبعوثى الهاجاناه قبل أن ترفع المرساة ، مردم كلف غواصين قاموا برفع السلاح من قاع البحر واستأجر سفينة الشحن « أرجيرو » ليشحن عليها حمولة البنادق وإرسالها إلى سوريا بأسرع مايمكن .